بحوث فى الأدب الفرنسى الحديث

تطور الحركة الأدبية

فى فرنسا الحديثة

العلم فى القصة ـ القصة التحليلية العلمية

بول بورجيه P. Bourget ١٨٥٢ — ١٩٣٥

التحليل العلمى عند بورجيه . التحليل الحى . المثالية
الرواية التقليدية أو آثار بورجيه الاخيرة

تختلف بيئات الأشخاص — عند بول بورجيه — عن بيئات المدرسة الواقعية ، فأرواح أشخاصه تكاد تحيا منعزلة عن أجسادها ، وهى ليست مختارة من الأشخاص المرضى أو المنحطين . وبالاجمال لا يحيا أشخاصه فى بيئة تلك المدرسة . وليس أشخاصه من سواد الناس ولا بموسرين سئموا الحياة ، وان منهم النساء الكبيرات والعاطلين ، مفكرين أو فنانين . وقد عد أرباب المدرسة الواقعية رواياته من نوع (السنوبينم) لأنها فى أجزائها الأولى قد تجسدت من ذلك الايمان بالعلم الذى كان مذهب زولا

وقد علم بورجيه أن أبرز صفة للشباب الحديث هى صفة « القلق العلمى » . وهذا القلق هو الذى كان يهيمن عليه يوم كتب رواياته ، وكان معلموه منهم « ستندال » الذى قرن فعل الخيال إلى الدراسة النفسية ، و « تين » الذى ابتكر علم النفس ، والذى بين أن فى النفوس بعض أسباب وعلل تجر بالضرورة إلى بعض أفعال ، وهذا علم النفس هو الذى وضع لرجال التشريح النفسى مبادىء وقوانين خارقة ، وهكذا لم تعد القصة وضعاً ولا تحليلا وانما أصبحت إيضاحاً

إن الدرس العلمى فى امكانه أن يولد تحليلا جذابا وجدلا عميقا يجعل من صاحبنا مؤلف « تجاريب نفسية حديثة » نقاداً واجتماعيا أكثر مما يجعل منه قصصيا ، لأن القصة ما هى إلا التعبير عن الحياة ، والحياة لا تكون حياة إلا اذا ظلت محافظة على ظواهرها فى حريتها واختيارها ، أما التحليل العلمى فقد لا يكون إلا ضربا من التشريح ، وكما يعلم بورجيه « أن كل ما يشرح هالك » على أن من حسنات عبقريته أنه وجد فى « ستندال » وفى « تين » وفى عبقريته الشخصية شيئا لم يقف عند التنقيب عن الاسباب والاعمال فانه تعلم — من وراء ذلك — حال تركيب العلل والاسباب ، وهو القائل « ان العقل المدرسى الذى يجدى فى المخاصمة الخطابية — يجدب حين يريد أن يخضع لقوانين قوة النمو المخنوقة والمتبدلة فى الحياة ، والدرس العلمى ينبغى له ألا يقنع بتوضيح هذه القوات المشوشة ، وإنما ينبغى له أن يعمل على اظهار التبدل فيها ، والدوافع والحياة ، ومن هذه الناحية وحدها تصبح آثار بورجيه روايات — لا مناقشات — كل شخص فيها عالم مستقل بذاته — عالم لاقانون — هذه خلاصة قصته « قلب امرأة » — وهى خير ما سطره يراعه ، لا تقف رواياته على التحليل المنطق فحسب ، وانما هى توليد واحضار وبعث للنفوس .

أما المثالية Idéal العلمية عند بورجيه فقد اختلفت جد الاختلاف عن مثالية « تين » فهو لا يجحد المذاهب العلمية ، حتى اذا حاول أن يذود مثلا عن مذاهب سياسية تراه يجرب أن يجعلها قواعد تجريبية ترتكز على أعمال فى المجتمع وأعمال فى التاريخ ولكنه — فى عالم الايمان — نراه أخذ يتحرى عن شجرة غير شجرة العلم ، وعنه يقول النقاد « جول ليمتر » : ان رجل اليوم هو عقلية مزيجة من العقل العلمى ، والشعور الرقيق الكئيب ، والقلق الخلق ، والرقة والعطف ، والتصوف . الروح العلمية — عنده — لم تجنح إلى عمارة الدين والاخلاق ، ولكنها تركتهما قليلا قليلا يعملان على فرض قواعد الحياة ، وقبل أن يغدو بورجيه رسول دين وسياسة تحول عن حلقة العلم الضيقة .

وهو القائل : إن انسان الرغبة والأنانية ، الذى لا يحيا إلا ليحلل نفسه ، ولو كان من جراء ذلك تعاسة الآخرين ، هذا الانسان قد مات بنفسه ، وهو القائل : « بألا حياة حقيقية إلا فى مثل أعلى للاخلاص والتزهد ، مثل أعلى فى الدين ، إذ لا تمكن الحياة مطلقة تحت رحمة الأهواء وتقلباتها المستمرة .

هنالك فئة من الأدباء حاربت أدب الديموقراطية والاشتراكية حربا عنيفة . ولقد عالج بورجيه فى روايته « التلميذ » المذهب

المـادى ، وتطرق إلى قواعد تين وبرتلوروريبو . والقصة ترى أن المذهب المادى خطأ . ولا يمكن فى كل الأطوار البرهنة على أنه مذهب حق . على أنه إذا كان حقا فلا يمكن نشر ذلك والجهر به ، إذ أن هذا التعليم يمكن أن يخلق تلاميذ كهذا « التلميذ » يرتكب جرائم خلقية ثابتة ، يكون المعلم فيها هو الضامن الكفيل . فرجل الآداب والمفكر لا يحق لها أن يكتبا كل شيء ، ولكن واجبهما أن يكونا نافعين . وهكذا تعلم قصص بورجيه أن الفرد ورضا الفرد وإرجاع العـدل إلى الفرد كلمات فارغة . إذ يرى أن المجتمعات هى أعضاء منظمة مرتبة ، ملاجئها الحية هى الأسرة ، فكل مايضر ببقاء الأسرة وخصبها وتنظيمها يفنيها كما هو الحـال فى الجرائم التى تودى بالكائن الحى . ومنها الطلاق والانهماك فى الفسق والزنا ، وهجر الأولاد قبل البلوغ . والمجتمعات حالها كحال الأعضاء فى استطاعتها أن تتحرك ولكنها لا تستطيع ذلك إلا ببطء ، وكل تبديل فجائى يجر معه المرض والموت . وهذه الأخيلة الباطلة التى تبشر بها المساواة والديموقراطية تؤول إلى هذه التغييرات والفساد ، فان الطبقات الاجتماعية لا تجوز « مرحلتها » إلا على مهل ، بخارجة من الحياة العاملة إلى اكتساب الثقافة العقلية ، وحسن استعمال الثروة ومعنى السلطة . ومن أجل هذا ينبغى إجلال « سياسة محافظة ارستقراطية » وديانة توحى إلى الانسان احترام الأسرة واحترام نظامها . وهكذا تبدل بورجيه فى نهاية أيامه ، وأصبح رجل وعظ فى السياسة والدين .

فشل العلم

نقد الفلاسفة

كان لبورجيه كما كان لبرتلو وتين وغيرهما ، إيمـان لا يتزعزع بالعلم ، .. والعلم وحده لا يكذب أصحابه ، وهو ينطوى على أسمى الآمال ، ولكن بورجيه لم يكن وحده حين هجر نبوءته ، وهجر الآمال الخادعة التى يذيعها فان الفلاسفة قبله قالوا : ليس للعلم مستقبل فيما وراء الطبيعة ، إذ أنه لا يقدر أن يعطى إلا يقيناً علمياً عملياً اصطلاحياً ، ولا يقدر أن يعطى اليقين ذاته . وقد قال « اميل بوتيروس » فى إحدى مقالاته المنطقية : « إن المذاهب العلمية لا تأتينا واضحة إلا الآن مقاييسنا غير واضحة . ولا توضح الحوادث إلا بحوادث اصطلاحية قد لا تكون صميم الأشياء ولكنها — صلك تحكيم — بين العقل والأشياء » على أن هنالك عدداً من الفلاسفة الذين درسوا العلم وقالوا بأنه لا يعطى الحقيقة المطلقة . وهذا « هاملان » دون أن يجحد تأثير العقل قال : بأنه لا يستطيع أن يفهم الحقيقة العميقة إلا إذا أولها وفسرها . وأخيرا جاءت فلسفة هنرى برجسون جاحدة بالفلاسفة والعلم الذى آمن به « تين وبرتلو » من قبل

هنرى برجسون

نقد العقل Henri Bergson

ولد سنة ١٨٥٩ وأشهر تصانيفه « معلومات الشعور المباشرة ، مادة وذاكرة ، والقوة المبدعة » ويذهب برجسون فى « كتابه الأول إلى القول بأن الشعور المنطلق عن العقل . الشعور الفطرى فيه لا يتلاءم أبداً مع ما استخرجه العلماء من العقل المتحول المتبدل — كما أرادوه وسهلوه — . فالعلماء هم فى حاجة إلى قياس الفضاء وهو سهل عندهم ، وإلى قياس الزمان وهذا أقل سهولة . لأن قياس الزمان معناه الافتراض بأن الزمان تتألف أجزاؤه من طبيعة واحدة Homagéne وأن اللحظات المتتالية على حادث قد تكون من بعض وجوه متشابهة متطابقة ، تطابق طول متر مع طول متر آخر . ولكن هذا ما هو الافتراض ، إذ حين تتأمل نرى أن زمان هؤلاء العلماء هو زمان مجرد أو هو التجريد . أما الذى يوجد فهو الدوام ، والشيء الذى يدوم يختلف — فى لحظة ملحوظة — عما كان عليه قبل اللحظة السابقة ، ولهذا ينطوى هذا الشيء على شيء هو « دوامه » . فالدوام هو متألف من أجزاء مختلفة طبيعتها . تختلف عن ذاتها بدون نهاية ولكى تنكر صفة « الدوام » التى قال بها « زينون » ولم ينكرها عليه أحد ، نرى أن الشيء يمكن أن يكون ساكناً ومتحركا فى وقت واحد ، وأن « أشيل » العادى وراء سلحفاة لا يستطيع — عقلياً — إدراكها . وهكذا نرى العلم المبنى على الاصطلاح لا يمكن أن يكون إلا اصطلاحياً

وقد أتم برجسون فى كتابه « مادة وذاكرة » برهانه هذا ، فالانسان — بوهم عميق الجذور فيه — آمن بأن عقله يبسط له

الحقيقة ، إن عين الحيوانات ليست موضوعة لتعرف أصحابها بحقائق الأشياء ، وإنما وظيفتها وظيفة عملية تهدى أصحابها إلى الانتظام بين الأشياء . فلو عاشت هذه الحيوانات على غير الأرض لاختفت لأنها تصبح عديمة النفع . وكذلك لكى نستطيع أن نحيا بين الحوادث ، قادرين على استخدامها على وجهها الأحسن المستطاع ، نجد هذا لا يطلب إلينا أن نعرفها بحقيقتها كما هى . وإنما يطلب إلينا أن نختار - بصورة عملية - الوجه الأحسن استعمالا وفائدة لنا ، لأن عقلنا لا يلمح إلا هذه الناحية العملية . إذ ليس هنالك عقل أو عقل شاعر الا حيث يمكننا أن نمسك جزءاً من الشيء الذى نفكر فيه . والعقل والفكر الشاعر ليسا بوسيلتين للمعرفة وإنما هما وسيلتان للعمل . والعلم الذى أوجداه وشيدا أركانه ماهو إلا نظام جديد لوسائل العمل . وفن مستقيم لاستخدام الحقيقة فى سبيل حاجاتنا . فهو لا يعلمنا الحقيقة ولا يكشف لنا أسرار الوجود كما هو الحال فى أن الأرنب لا يكشف لنا طبيعة السرعة والخفة .

نقد العلماء

وأما العلماء أنفسهم فقد قلبوا وجوه العلم ودققوا مسائله . فانتهوا إلى القول بأن العلم إنما هو مذهب ووسيلة إلى استخدام الأشياء ، والعلم لن يصل أبداً إلى « المطلق » وقد عملت بعض مدارس الطبيعيين على رد علوم الطبيعة إلى مذهب رياضى صرف غايته الأرقام التى تأتى نتائجها صحيحة ، وخلاصة هذا النقد توجز فى أبحاث الرياضى الكبير « هنرى بوانكاريه » ، فهو فى كل ما كتبه أعطى الأدلة القاطعة على بيان فضل العلم ، ودافع عن نفسه بأنه رجل شاك . وهو يرى أن التمحيص العلمى ليس عملا عبثاً . بل إنه عمل أقل عبثاً من غيره من أعمال الانسان . وهو فى الغالب يكون مذهباً مطلقاً . وكل العلوم - مثلا - هى علوم الحركة ، على أن من المحال أن نثبت حركة مطلقة ، وأن نبرهن - بقياس منطق - على حركة الأرض

وهكذا نجد الفلاسفة والعلماء ينضم بعضهم إلى بعض للاتفاق على هذه الخلاصة ، وهى أن هنالك حقيقة مركبة متحركة بدون انتهاء ، وعقلا عمل - من أجل ادراكها واستخدامها - على فرض بساطتها واتحاد فكرتها وقوانينها ولكنه بعمله هذا غير الثوب وأفسد الحقيقة .

الفلسفة الشاكة والنقد الشاك !

رينان فى عهده الأخير

جمع رينان عام ١٨٩٠ كتابه « مستقبل العلم » وأنجز تاريخه فى أصل المسيحية . وقد كان ذلك المعلم الذى يعلم « بألا تقبل الحقيقة فى التاريخ الانسانى والعلوم أيضا إلا ماشهد العقل عليه مرفوقا بالأعمال على أنه حقيقة » أما آثاره الأخيرة فقد جاءت تعلمه بأن ليس فى القدرة التثبت من أية حقيقة . وأن هذا العجز قد يكون ضروريا فى بعض الأحيان . إن محاوراته الفلسفية تعلمنا أن الحقائق المطلقة ، الحقائق الفلسفية ، لا يمكنها أن تكون هدف البراهين ! وقد يكون هذا خيراً ، إذ من يعلم أن الحقيقة ليست بدافعة إلى الحزن ؟ من يعلم أن الأخطاء والأوهام ليست بنافعة أو ضرورية ؟ لقد كان الشعب حيوانا ضارياً مولعا بالاعتقادات الباطلة ، فذللت صرامته ومشادته باعتقادات باطلة مثلها . ماعسى يغدو الانسان إذا أصبح واقعيا ؟ إنه يصبح سيداً صارما احمق ! من يعلم بأن حكمة سليمان لم تكن على حق ، تلك الحكمة القائلة : « كل شيء باطل ، باطل الأباطيل ، وكل شيء باطل تحت الشمس » . وإذا لم يكن كل شيء باطلا فان الفلسفة الحقيقية قد تكون فلسفة الصراصير والقبرات التى لم تشك أبداً فى أن نور الشمس ليس جميلا ، وأن الحياة ليست هبة سنية ، والأرض ليست معقلا حسناً للأحياء . إن خير مانصنعه على هذه الأرض هو ألا نستغرق فى تعليل الأشياء والتحقيق فيها ، وإنما نعمل على محبتها . فان سر الحياة لا يقف على العلم ولكن على الحب . وبهذا عمل رينان على تهذيب شكه وتشذيبه ، وشهد على أن أكثر الأشياء ضمانا وجداً ، مهما ذهب الظن ، هو العلم . وهنالك فئة كبيرة ذهلت من شك رينان الذى غمرها ، وكان ذلك لعمر قصير ، ولكن عادت هذه الفئة إلى التأثر بمؤثرات جديدة أخرى

النقد المنفعل Impressionisme

« جول ليمتر » J. Lemaitre ١٨٥٣ - ١٩١٤

إن رينان قد أكمل دورة العلم قبل أن يناقشه ويحاكمه . وجول ليمتر لم يذهب إلى أبعد من ذلك . إنه أكمل دورة النقد

وحده . وقد لقى فى المنابر والنوادى والصحف الكبيرة نقداً له فذهب من مزاعمه أنه يهذب الرأى باسم الذوق السليم والعقل . فسانت بوف - برغم عبقريته - لم يترك فى النقد مدرسته ، وتين لم يأخذ عنه النقد إلا دساتيره ، وقد ألفى جول ليمتر أن هذا النقد عمله أن يحكم على بودلير وفلوبير وفرلين وهنرى بيك وسواهم . ووجد فيه ما يبعث على السأم فشهد على أنه نقد فيه غش ومداهنة لأنه مبنى على أصول ومذاهب . ولكى يتم اليقين بهذه المذاهب ينبغى أن تبدل بمذاهب غيرها . وغيرها أيضا إلى ما لا انتهاء . لأن هذه المذاهب ما بين جيل وجيل إما أن ينقض بعضها بعضا ، وإما أن تتلاشى . إذ ليس هنالك فى الحقيقة إلا ارتياح أو ضجر ، إلا انفعالات وتأثير . وقال أنا طول فرانس فى كتابه « الحياة الأدبية » : الحقيقة هى ما لا تخرج عن نفسها أبدا وفى هذا أكبر بلائنا . فلنتحمل إذن بخلوص نية هذا البلاء ، ولا نصدر أحكامنا على الآثار ، ولنصدر انفعالاتنا !

لقد كان جول ليمتر صادقا ولكنه كان أقل اهتداء مما راح يزعم ، فلقد انتمى فى أواخر أيامه إلى مذاهب سياسية ، وكان زعيم الحزب الوطنى ، وهو - فى فترات راحته - لا تشعر منه بذلك الرجل الذى يتحدث للتحدث وحده ، ولكن تحس ذلك القاضى الذى يحكم ويدين . على أنه يبقى رجلا عالماً يبعض آثاره العالية ، ومذهبه الانفعالى قد ترك له مجال الخوض واسعاً . فهو يستطيع أن يخوض حقولا مختلفة فى الأدب والفن لا يصرفه عن ذلك شىء ، وقد عمل على تجديد الأدب القديم وكانت له فيه محاولات لاستنقاذه من قيود الفصاحة التقليدية المدرسية لكى يندمج مع الحياة الراهنة . وإذا كان النقد الانفعالى لم يجعل همه التحقيق والاقناع فهمه إذن أن يسر ، وهكذا أراد جول ليمتر أن يسر ! ولقد كان هذا الناقد ممن أوتى روحاً وخفة وفناً متزناً مستقيما ، فكان تأثيره عظيما وأعظم آثاره « المعاصرون » .

° ° °

ريمى دى كورمون Remy de Gourmont ١٨٥٨ - ١٩١٥

لا يمكن الخوض كثيراً فى الحديث عن « ريمى دى كورمون » فلقد كان له قراء أمناء ، لكن عددهم قليل . إذ كان يمقت الفوز والجماعات والمجد المدرسى ، على أنه كان معلماً ، معلم صفوة مختارة من القراء ، اتبعت تعاليمه ومذاهبه . وكانت تجد فيها فكرة رائعة متنوعة ، لا تقف على الأدب وحده ، لقد كان يفتش فى الآداب خاصة عن ترجمة صادقة للحياة . وكان يرى أن ليس فى الامكان تفهم الحياة بغير العلماء والفلاسفة . ولذا تناول فى بحوثه شخصيات مختلفة . أرباب علم وأدب وطبيعة وطب وأرض واجتماع ، وتحدث عنها كما يتحدث عن شعراء وروائيين ، ولكنه لم يحمل فى كل هذا علم اليقين . إذ لا يقين - عنده - فى العقل الذى لم يبلغ إلا ذرة من الحقائق الظاهرة ! إلا ذرة واحدة ! ولا فى القلب الذى لا يمثل لنا إلا فصولا مختلفة ، لا هم له منها إلا إلقاء السدول على العقل ، ولا فى نظريات « ما وراء الطبيعة » ولا فى الأديان التى تطفح بعوامل التعصب . لا نراه يجنح إلى الشك . لا شك التشاؤم : هنالك فلسفة السعادة ... ينبغى أن تحيا سعيداً ! وأن تكون فوق كل شىء وأن تحتقر كل شىء وأن تحب كل شىء ، وأن تدرك بأنه لا يوجد شىء ، وإن هذا اللاشىء فى الامكان أن يكون كل شىء ، والحياة بعد هذا كله - مشهد ، يكفر ما فيها من اللذة عما فيها من عناء وشقاء ، وأن فى الجهود المصروفة إلى تعرفها وتفهمها معنى قد يرفع العقل إلى ما فوق حدود الفناء .

وقد وضع فى حياته الأدبية سلسلة أفكار قيمة ، وقد ظل يؤمن بأن هنالك كتابا صعاليك وهم من يدعون « بالمدرسين » ، وكتابا ليقين دأبهم أن يتحروا عن الأساليب الجديدة والتعابير الحية فى الفن ، وقد حارب بشدة فى سبيل المدرسة الرمزية وناوأ خصومها أشد مناوأة ؟

خليل هنداوى

رحلة

فى بلاد العربيـــة السعيدة

تأليف : نزيه مؤيد العظم بك

وصف مسهب لبلاد اليمن وسبأ ومأرب ونصوص المعاهدات التى عقدتها الدول مع اليمن يقع فى ٤٤٠ صفحة من القطع الكبير مزدان بالصور وهو الكتاب العربى الوحيد فى بابه ويطلب من : —

مكتبة عيسى البابى الحلبى وشركاه

بجوار سيدنا الحسين بمصر

ثمن النسخة ٣٠ قرشاً عدا أجرة البريد